النفحات العطرية

من سيرة خير البرية

صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم

بقلم

نور الدين عتر

خادم القرآن والحديث في جامعة دمشق

النفحات العطرية

من سيرة خير البرية

صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم

بقلم

نور الدين عتر

رئيس قسم علوم القرآن والسنة

كلية الشريعة جامعة دمشق

الطبعة الثانية منقحة ومعدلة

١٤١٩هـ = ١٩٩٨م

جميع الحقوق محفوظة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي شَرَّفَ العَالَمِيْنَ بسيدنا محمد ﷺ أَعْظَمِ الأَنْبِياءِ والمرسَلِيْن، واجْتبَاهُ واخْتَارَهُ بَشيراً ونَذِيراً للأَوَّلِيْنَ والآخِرِيْن. اللهمّ صلِّ وسلِّم وبارِكْ عَلَيْه وعلى آلِه وأصْحَابِه وأتباعِه بِإِحْسانٍ إِلى يومِ الدِّين.

أمّا بَعْــدُ:

فهذه «**نَفَحَات عِطْرِيّة**» يَحِقُّ عليكَ أيها المُسْلِم أن تَحفَظها، وتكونَ على ذكْرٍ لها، «**مِنْ سِيْرَةِ خَيْرِ البَرِيَّة**»، عليه من الله تعالى أفضلُ الصلاةِ والسلامِ وأَزْكَى التَّحِيَّة، وهي لَمَحاتٌ يَجِبُ علَى المسلِمِ مَعْرِفَتُها، عن شَخْصِ رَسُولِ الله ﷺ وَمَوْلِدِهِ، ونَشْأَتِهِ وبِعْثَتِه وذِكْرِ أَحْوَالِه، ومَوَاقِفِه في تبليغ الدعوة وجهاده ﷺ، ثم شمائلِهِ الحَمِيْدَةِ المَجِيْدَة، ودلائِلِ نُبُوَّتِهِ القَاطِعَةِ لِكُلِّ شَكٍّ وريْبَة. وإنّ كلَّ مَا أَوْرَدْنَاه هُنا هوَ مِن الأحاديثِ الصَحيحةِ وَالثابِتةِ، فكُنْ مِنْها على طُمأَنِينَة وسَكِينة، وتأَمّلْ ما فيها مِن

دَرْس وعِبْرَة، وصَلِّ وسَلِّمْ على النبيِّ ﷺ عندَ كلِّ جُمْلَة، وعطِّرِ المجلس بالصلاة والسلام عليه ﷺ لَدَى نِهَايَةِ كلِّ مقطعٍ وفِقْرَة.

واسْتَحْفِظْها أخي المسلم، فإن العالِمَ بها يُحصِّلُ رُتْبَة يفوقُ بها مَنْ جَهِلَها، ويَتَخلَّصُ مِن الزَّجْرِ الوارِدِ في القرآنِ لِمَنْ غَفِلَ عَنْها، كما أنَّ للعِلْمِ به ﷺ وكَمَالاَتِه حَلاوَةً في الصُّدُورِ فَرَحاً وسُرُوْرَاً، ولِذِكْرِهَا في المَجَالِسِ اسْتِبْشَارَاً وحُبُورَاً.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اعْلَمْ أَخِي المُؤْمِنَ أنَّ اللهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى قَدْ خَصَّ نَبِيَّهُ محمداً ﷺ بأَنْ جَعَلَهُ أفضَلَ النبيينَ والمرسَلِين، وخاتَمَ النَّبِيِّينَ والمرسَلِين، وأعْظَمَهُمْ رِسالَةً، وأكملَهُمْ شريعَةً، وآتاهُ أَعْظَمَ المعْجِزَات، وجعَل له أعظمَ الآثارِ في نُهوضِ الحياة. وأخَذَ المِيْثَاقَ على النبِيّين أنْ يُؤْمِنوا به إنْ جاءَهم، وبشَّرَ بِه الأنبياءُ وموسى وعيسى أُمَمَهُمْ، فهُمْ ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

* * *

وِلادَتُــه ﷺ

بَعَثَ اللهُ تَعَالَى مُحَمّداً ﷺ على حِيْنِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُل، وقد انْتَشَرَ الضَّلالُ، وَعَمَّ الجَهْل، وتَحَرَّفَتْ دياناتُ الرُّسُلِ، بِالشِّرْكِ والوَثَنِيَّة، وسَادَ الظُّلْمُ والقَهْرُ على الناسِ مِنْ كلِّ قُدْرَةٍ قَوِيَّة. حتى أممُ الحضارَاتِ والفَلْسَفَة، غرقَتْ في أوحالِ الشِّرْكِ وأَدْنَاسِ الجاهِلِيَّة.

وقد تحدَّثَ مَنْ بَقِيَ مِنْ عُلَماءِ الدينِ الحقِّ أنَّه آنَ الأَوَان، لِظُهُورِ نبيٍّ آخرِ الزمان، وَشَهِدَ العربُ عِنَايَةَ اللهِ بهمْ، وإعظامَه حرمَةَ بَيْتِهِ المُعَظَّم عندهُمْ، فَأَهْلَك الأَحَابِيْشَ الذين جاؤُوا لِهَدْمِه، إِرْهَاصاً وتَكْرِيماً لِمَوْلِدِ نَبِيِّه ﷺ: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ فصارَ العرب يُؤَرِّخُوْنَ به وقائِعَهُم[1]، لِعَظَمَةِ شأنِهِ في قُلُوبِهم، فكانَ مَوْلِدُهُ ﷺ في هَذَا العامِ عامِ الفيل[2]، فَجْرَ يومِ الإثْنَيْنِ التاسعِ من شهرِ ربيع الأول، على تحقيق بعض الأئمة، أو الثانيَ

---

(١) وكان ذلك عادة الأمم قديماً؛ يؤرخون بحادث عظيم، أو أمر غريب، وحادث الفيل عظيم غريب، فصاروا يقولون حدث كذا عام الفيل، أو ثاني عام الفيل.

(٢) المصادف للسنة ٥٧١ من مولد السيد المسيح عيسى بن مريم، عليه من الله السلام والتبجيل.

عشَرَ منه على المشهورِ عند الأئمة.

وظهَرَ عند ولادَتِـهِ ﷺ خَوارِقُ وعَجائِبُ غَيْبِيَّة، إرْهَاصَاً وتمهيدَاً لِنُبُوَّتِه، وإعلاماً بأنَّهُ مُخْتارُ اللهِ ومُجْتَباهُ، فَزِيْدَتِ السمَاءُ حِفظاً مِنِ اسْتِرَاقِ السمْعِ لِذَوِيْ النُّفوسِ الشَّيْطَانِيَّة، وَرَجَمَتِ الشُّهُبُ كَلَّ رَجِيم في حالِ مَرْقَاه، ورأَتْ أمُّهُ نوراً أضاءَ قصورَ الشَّام بالأَنْوَارِ البَهِيَّة، وكذلكَ أُمَّهاتُ النَّبِيِّينَ يَرَيْنَ كَما في السنةِ الثابتةِ المَرْوِيَّة، وإكْرَامَاتُ اللهِ لِنَبِيِّه في مَوْلِدِه ﷺ كثيرة، تَزيدُ الإيمانَ في قلْبِ مَنْ يصْدُقُ في مَحبَّةِ رَبِّه ورضاه.

* * *

نَسَبُـهُ الشَّرِيْفُ ﷺ

وُلِدَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أُسْرَةٍ كريمةٍ أفضلِ الأُسَرِ العَرَبِيَّة، شُهِرَتْ أبَاً عن جَدٍّ بفَضَائِلِ الأخْلاَقِ وكَريمِ الفِعالِ المَرْضِيَّة، فهو مُحَمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ (واسْمُهُ شَيْبَةُ) بنِ هاشمٍ (واسْمُه عَمْرو) بنِ عبدِ مَنافٍ.

وأمه ﷺ آمنةُ بنتُ وَهْب بنِ عبدِ مناف بنِ زُهْرَةَ الزُّهْرِية.

وهو ﷺ من نَسْلِ عَدْنَانَ مِنْ نَسْلِ إسْماعِيْلَ عليه السلام والدِ العربِ المُسْتَعْرِبَة.

نَشْـأَتُـه ﷺ

وَلَدَتْ آمِنَةُ رسولَ اللهِ ﷺ يَتِيماً بعدَما تُوُفِّيَ أبوه عبدُ الله، فَكَفَلَه جدُّه عبدُ المطَّلِب ورَعاه، وأرْضَعَتْه أمُّه أيّاماً، ثم أرضعته ثُوَيْبَةُ الأَسْلَمِيّة، ثم أَرْضَعَتْهُ بعدَها في البادية حَلِيْمَةُ السَّعْدِيَّة، كما هي عادَةُ أهْلِ مَكّة، لإبْعَادِ الطِفلِ عنِ التَّلَوُّثِ وطَلَباً لِفَصَاحَتِهِ اللُّغَوِيَّة. وبعدَ تَمامِ سنَتَيْنِ مُدّةِ الرضاعَة، طلَبَتْ حليمةُ استمرارَ رضاعِهِ ﷺ عندها، لما رَأَتْ مِنَ الخيرِ والخِصْبِ وإدرارِ النِّياقِ والشِّياه.

وجاءَهُ مَلَكانِ فَشَقَّا صَدْرَهُ الشَّريفَ، ثم خَاطَاه، فعادَ كما كان، ورَجَع ﷺ مُنْتَقِعاً مُتَغِّيرَ اللونِ لِما رَآه. فأعادَتْهُ حليمةُ إِلى أُمِّهِ خوفاً عليهِ من الحادِثِ تَخْشاه.

ثم خرجَتْ به أمُّه إلى المدينَةِ لزِيارَةِ أخوالِه بَنِي النَّجار، ثم عادَتْ فوافَتْها في الطريقِ المَنِيَّة، وكان عُمُرُه ﷺ عندَ موْتِها سِتَّ سِنين، ثم ماتَ جدُّهُ وكافِلُهُ عبدُ المطلب وهو صغيرٌ ابنُ ثمانِ من السِّنين، فاسْتكْمَل الْيُتْمَ مِن جميعِ جَوَانبه، وتضَاعَفَتْ عليهِ مصيبَتُهُ وآلامُه. فَكَفَلَهُ أبو طالب عمُّه، وأكْرَمَ نُزُلَهُ ومَثْواه، كما أَمَره عبدُ المطلب وأوصاه.

وكانَتْ نَشْأَتُه ﷺ على هَذَا اليُتْمِ لِحِكم جَليلَةٍ إِلَهِيَّة؛ وهي

أنْ يَكونَ مُخْلَصاً لِعِنَايَةِ رَبِّهِ، وَتَرْبِيَتِه تعالى بذاتِه، ليسَ لأحدٍ من الخلقِ فضْلٌ عَلَيْه سِوَاه. فطَهَّرَهُ سبحانَه مِنَ الشِّرْكِ ومن عادَاتِ قومِهِ الجاهِلِيّة، فلمْ يُعَظِّمْ لهُمْ صَنَماً ولم يَحْضُرْ لهمْ مَشْهَداً، وكانوا يطْلُبُوْنَه لذلك فَيَمْتَنِعُ ويعْصِمُهُ الله. وكانَ هذا دليلَ عِنايَةٍ خاصةٍ بِه مِنَ الله؛ أَنْ حفِظَهُ مِن الشركِ والخَمْرِ والقِمار وكلِّ عَيْب.

ومَنَحَهُ اللهُ تعالى كلَّ خُلُق جَمِيل، حتى كانَ يُعْرَفُ بينَ قومِهِ بالأَمِين، لما رَأَوْا مِن أمَانَتِهِ وصِدْقِهِ وطهارَتِه.

ولما بَلَغ ﷺ مِنَ العُمُرِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَة، رحَلَ به عمُّه أبو طالب إلى بلادِ الشامِ لزيادةِ تعلقِهِ بِه ومحبَّتِهِ إيّاه، وبَلَغَ مركزَ تِجارتِهِمْ بُصرى، فرآهُ الراهبُ بَحِيْرَىٰ، وعرَفَ فيه علامةَ النُّبُوَّة، وأمَرَ عمّه أنْ يرجِعَ بهِ خوفاً من أهلِ دينِ اليهودية، فرجَع عمُّه سَرِيعاً بِه. وأقام ﷺ بمكَّةَ يخوضُ غِمارَ الكَسْبِ مِنْ عَمَلِه، لِيكْفِيَ عمَّه تكاليفَ نَفَقَةِ الحياة.

وقامَ ﷺ بِرِعَايَةِ الغَنَم، تمهيداً وتدريباً له على رِعَايَةِ الأمم، كما هي سنّةُ اللهِ تعالى في الأَنبياءِ والمرسَلِين، ثم تاجَرَ في أموالِ النّاسِ، فظَهَرت فضائِلُهُ واشْتَهرَ بينهُمْ بالأَمين.

* * *

زوَاجُــهُ ﷺ مِنْ خَدِيْجَــة

وفي السنةِ الخامسةِ والعِشْرِينَ من عُمُرِه خرج في تجارةٍ لِخَدِيجَةَ بنتِ خُوَيْلِدٍ الأسَدِيَّة، وكانَ معهَ غُلامُها مَيْسَرة، يخدُمُهُ ويُعِينُه في أمرِه، وربحتْ تِجارَتُه، وتضاعَفَ رِبْحُه، ورأى مَيسرةُ مِن لَطِيفِ خُلُقِهِ وعَجِيبِ أمرِه، وقصَّ على السيدةِ خديجَةَ كل خبرِه، فعَرَفَتْ بكمالِ عَقْلِها فضلَ النبي ﷺ، فَخَطَبَتْهُ لِنَفْسِها، لِتَنالَ أعظَمَ الخيرِ والفضلِ في دُنياها وأُخْرَاها، وكانَ لها الفَضْلُ أنْ رُزِقَ ﷺ كُلَّ وَلَدِه منها، إلا ابْنَه إبراهيم، فإنه مِن ماريةَ القِبْطِية، عليهم مِنَ اللهِ الرِّضوان والتسليم والتحية.

* * *

تَجْدِيــدُ بناء الكَعْبَــة

ولمّا بَلَغَ ﷺ خَمْساً وثلاثينَ سَنَة، تصدَّع بُنْيانُ الكعبَةِ مِنَ السُّيولِ الجارفَة، وقامَتْ قُرَيْشٌ بتجديدِ بُنْيَانِها، واخْتَلفوا فِيْمَنْ يَضَعُ الحجرَ الأَسْوَد في رُكْنِهَا، وأراد كلُّ زعيمٍ التشَرُّفَ بِه، وأنْ يرفَعَهُ ويَضَعَهُ في موضِعِه، وتنازَعُوا وعَظُمَ بينَهُم الخِصَام، ثم تَرَاضَوْا أَنْ يحكُمَ أوَّلُ داخلٍ إلى المسجدِ الحَرام، فكانَ هو النبيّ ﷺ فقالوا: هذا محمد الأمين، رَضينا به حَكَمَاً. وكانَ

ذلك أَمَارَةً لِما سَيكونُ لهُ عليهِمْ من السِّيادَة، بِإِكرامِ اللهِ تعالى لهُ ﷺ بِشَرَفِ النُّبُوَّة.

* * *

نُـزُولُ الوَحي

ولما بلغ ﷺ سِنَّ الأربَعِيْن، بَعَثَهُ الله تعالى بشيراً ونذيراً للعـالمين، و«أَوَّلُ ما بُـدِىءَ بِـه رسولُ الله ﷺ مِنَ الوحيِ الرُّؤيـا الصالحـةُ في النومِ، فكـانَ لا يَـرَى رُؤْيـا إلا جـاءَتْ مثـلَ فَـلَقِ الصُّبْحِ، ثم حُبِّبَ إليه الخَلاءُ، وكانَ يخلُو بغارِ حِرَاء، فيتحنَّثُ فيه ـ وهوَ التعبد ـ الليالِيَ ذَوَاتِ العدَد، قبلْ أنْ يَـنزِعَ إِلى أهله ويتزوّدُ لذلك. ثم يَرجعُ إلى خَديجةَ فيتزوّدُ لِمِثْلِها».

حتـى جـاءَهُ الحقُّ وهوَ في غـارِ حِرَاء، فجاءَه الملَك فقـال: اقْـرَأْ. قـالَ: ما أنا بِقَارِىء. قال: فَـأَخَذَنِي فغَـطَّنِي[1] حتى بلغَ مِنِّـيَ الجَهْـدَ، ثم أرسلنـي فقال: اقْـرَأ. قلتُ: ما أنـا بقـارىء. فأخَذني فغَطّني حتى بلغ مني الجهد [حتى قال بعد الثالثة]: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾.

---

(١) أي ضمَّني وعَصَرني بشدة.

وكانَ ذلكَ إِيذاناً بنَقْلِ العالَمِ إلى العِلْم، وإنقاذِه مِن الجَهْلِ والظُّلْم، فقامَ ﷺ يدعُو إلى توحيدِ الله تعالى سِرّاً، ويجتهدُ في ذلك مَعَ مَنْ يَثِقُ بِه ويلْقَاه، فَدَخَلَ الإسلامَ جماعةٌ قليلةٌ من الرِّجال والنساءِ، أوّلُهم السيدةُ خديجةُ وأبو بكرٍ الصِّدِّيق وعَلِيُّ بن أبي طالِب وزيدُ بْنُ حارِثَـةَ مَوْلاه رضي الله عنهم.

وقامَ أبو بَكْرٍ في الدعوة إلى رسول الله ﷺ، فَأسْلَم على يَدَيْه عثمانُ بن عفّانَ وسَعْدُ بنُ أبي وَقَّاص وسَعِيْدُ بنُ زَيد وطَلْحَةُ بنُ عُبَيد الله وعَبْدُ الرَّحْمن بنُ عَوْفٍ والزُّبَيْر بنُ العَوّام. وغيرهم، ممنْ شَرَح الله صدْرَه للإسلامِ رضي الله عنهم.

* * *

الجَهْـرُ بالدَّعْـوَةِ وتَحَمُّـلُ الشَّدائـد

ثـم أنـزلَ اللهُ تعـالـى علـيه : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، فَجاهر بدعوةِ الخلْقِ إلى توحيد الله، والاستعدادِ ليوم لُقْيَاه، وحاجَّ الناسَ لإبْطالِ الشِّرْكِ والدُّهْرِيّة، فَلَقِيَ مِنَ العَنَتِ والأَذَى هو وأصحابُه ما لا يحيطُ به وصفٌ ولا بَيان.

وكان له مِن عمّه أبي طالبٍ نَصِيرٌ يَكُفُّ عنه، لمكانِه في قومِه، ومِنْ زوجِه السيدةِ خديجةَ وزيرُ صِدقٍ يَشُدُّ أَزْرَهُ على

تحمُّل أذَى قومِه وأعدائِه، ومن أبي بكرٍ الصديقِ مِعْوَانٌ يُنَاصِرُهُ بِماله وقوَّتِه وحُجَّتِه.

واشتـد الأَذَى والبَـلاء علـى المُسْلِميـن مِـن أهـلِ الشِّـرك والوَثَنِيَّة، كانُوا يُعْطِشُونَ المسلمَ، ويعذِّبُونَه بالنار، والغَطْسِ في الماءِ، وكلِّ ما يمكن من الأَذِيَّة، وصَبرَ الصّحْبُ الكِرامُ، وماتَ مِنْهُم مَن ماتَ، وهاجَرَ جماعةٌ إلى الحَبَشة، وكانتْ على المِلَّةِ النصرانيَّة.

وازدادَ انْتِشَارُ الإسلامِ فعَظُمَ أَذَى المُشْرِكِين، حتّى تآمَرُوا في السنة السابعة على مُقَاطعةِ المُسْلِمِيْن، فَلَحِقَتِ المسلمينَ مِن ذلك أعظَمُ شِدَّةٍ وبَلِيَّة، أكلوا أوْرَاقَ الأشجَارِ وقِشْرَها وجُلُوْدَ الحيوانَات. ثم فرّجَ الله عنهم بعدَ أكْثَرَ مِن سَنَتَيْنِ مِنْ أشَدِّ السَّنَوَات في تاريخ الحياة.

* * *

عـامُ الأَحْـزَان

ثم ماتَ عمُّه أبو طالِب في السَّنَةِ العاشِرَة، فاشْتَدَّ عليه حُزْنُ النبي ﷺ، كذلكَ ماتَتْ بِقُرْبٍ من موتِه السيدةُ خَدِيجةُ رضي الله عنها ـ قيل بينَ وَفاتَيْهما ثلاثةُ أيام ـ، فَتَضاعَفَتِ المصيبةُ وعَظُمَتِ الرَّزِيَّـة على النبيِّ عليه الصلاةُ والسلام، وسُمْي ذلك العامُ عامَ الحُزْنِ، لِمَا نَزَلَ بالنبي ﷺ من الأَحْزَان والآلاَم. ونالَ المُشْرِكون

من النبي ﷺ والمسلمينَ ما لم يَنَالُوهُ مِن قَبْلُ مِنْ صُنوفِ الإيذاءِ والإيلام.

وَراح النبي ﷺ يَعْرِضُ نفْسَه على القَبَائِل في مَوَاسمِ حَجِّهِمْ لِيَعْرِضُوا قَوْمَهم ويُعِيْنُوه أنْ يُبَلِّغَ كلامَ الله، فَلَقِيَ منهم أذىً شديداً ولم يقبَلُوا دعواه.

وقصدَ ﷺ مدينة الطائفِ يدْعو أهلَهَا إلى توحِيْدِ الله، فأسَاؤُوا الردَّ وأغرَوْا بِهِ العَبِيدَ والسُّفَهاء، فسبوه ورَمَوْه بِالحجَارَةِ حتى صُبِغَتْ بالدمِ قَدَمَاه. وكان أذاهُمْ أشدَّ أذىً يَلْقاه، حتى قَدْ سار على وجْهه لا يدرِي أينَ ممشاه، سارَ هكذا قرابةَ يومينِ، فلم يَسْتَفق إلا بِقَرْنِ الثَّعالِب قربَ عَرَفاتٍ. ودعا ﷺ دعاءً قال فيه: «اللهم إليْكَ أشْكُو ضَعْفَ قوَّتِي وقِلَّةَ حِيلَتِي وهَوَانِي على الناسِ، يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ المستَضعَفِين، وأنتَ ربي، إلى مَن تَكِلُنِي: إلى بعيدٍ يَتَجَهَّمُنِي، أم إلى عَدُوٍّ مَلَّكْتَه أمري؛ إنْ لم يكُنْ بِك غَضَبٌ علَيَّ فلا أُبَالِي».

فجاءه جبريل ومعه ملك الجبال، وكلماه ﷺ. وقال له مَلَكُ الجبال: «إنْ شِئْتَ أنْ أُطْبِقَ عليهمُ الأخشَبَيْنِ»؟ فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أنْ يُخْرِجَ اللهُ مِن أصْلاَبِهم مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وحدَه، لا يُشْرِكُ به شيئاً».

* * *

الإسْـرَاءُ والمِعْـرَاج

ثم أسْرَى اللهُ بعبدِه ليلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إلى المَسْجِدِ الأَقْصَى، وَعَرَجَ به إلى السماواتِ العُلا، وأدْنَاه وناجاه، وكلَّمَه وفَرَضَ عليه فَريضَةَ الصلاة. وكان ذلكَ تَكْريماً مِن الله تعالى لجِهادِ نَبِيِّه ومُصْطَفاه، وإشعاراً لأُمَّتِه أنَّ مَنْ أَخْلَصَ لِرَبِّه واعْتَصَمَ بِه أكرمَهُ وأعْلاَه.

* * *

بَـيْعَــةُ العَقَبَــة

وفي السنة الحاديةَ عشرةَ اجتهد ﷺ في عرض نفسه على القبائل، حتى صَادَفَ عِنْدَ العَقَبَةِ في مِنىً رَهْطاً سِتَّـةً من الخَزْرَجِ أرادَ الله بِهِمْ خَيْراً، فأجابُوْهُ وآمنوا بِه وأَمّلُوهِ بالْبُشْرَى.

ثم كانَ موسمُ الحجِّ من العامِ القادمِ، حضرَ المَوْسِمَ من الأنصارِ اثْنَا عَشَرَ رجلاً، وبايعوا رسولَ الله ﷺ بَيْعَةَ العَقَبَةِ الأُوْلَى، ثم انْصَرَفُوا وأظْهَرُوا الإسلامَ في المدينة، فصارَ في كلّ بيتٍ ذِكْرٌ لِرَسُولِ الله، عليه أفضلُ الصلاةِ والسلام.

وفي السنة الثالثَةَ عَشْرَةَ خرجَ حُجَّاجُ الأنْصارِ المسلمينَ مع قَوْمِهم المشركين، وكان وَفْدُ المُسْلِمينَ كَبيراً بلغ ثلاثَةً وسبعين رجُلاً وامْرَأَتَيْن، انْسَلُّوا لَيْلاً وبَايَعُوا النبيَّ ﷺ علَى الإسْلاَم. وأخرجَ منهمُ اثني عَشَر نَقِيباً كُفَلاَءَ عن قومِهِمْ، وكفل هو

أصحابَه كَفَالَةَ عِيسى عليه السلام للحَوَارِيِّين رضوان الله عليهم. وبايَعُوا النبيَّ ﷺ عن قومهم، أن يهاجِرَ هوَ وأصْحَابُه إليهم، ويقومُوا بِحِمَايَتِهِ وحمايةِ أصْحَابِه مما يَحْمُوْنَ أنفسهم ونساءهم، ولم يشترطوا مقابل ذلك إلا جَنَّةَ الله، والفَوْزَ بِرِضَاه.

* * *

الهِجْـــرَة

وأمرَ النبيُّ ﷺ أصحابَه بالهِجْرَةِ إلى المَدِيْنَةِ، ومَكَثَ إلى آخِرِهِمْ ينتَظِرُ حتَّى أُذِنَ له بالهِجْرة، فَأَحْكَمَ لها الترتيبَ والخِطَّة. واتّخذ الأَسباب المُمْكِنَةَ والحِيْطَةَ. وخرج هو وصاحبُه أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه إلى غارِ ثَوْرٍ يَخْتَبِئانِ فيه، حتى يتوقف بحثُ العِدَاة. وراحَتْ قريشٌ تُفَتِّشُ وأرسَلَتْ في القَبائِل بجائِزَةٍ، مائة من الإبِلِ في كل واحدٍ يُقْتَلُ أوْ يُؤْسَرُ منهما، ووصلَ الطلبُ غارَ ثَوْرٍ، لكنَّ الله تعالى صَرَفَ أبصارَهُم عنهما، وسجَّلَ إعجازَ ذلك فقال: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

وفي الطريقِ إلى المدينةِ لَحِقَهُم سُرَاقةُ بنُ مالِك واقتربَ منْهُم، فابْتَهَلَ النبيُّ ﷺ إلى اللهِ فغاصَتْ قَوائِمُ فَرَسِ سُرَاقَةَ في الأرض، ومَنَعَهُ اللهُ عنهم، فَطَلَبَ الأَمانَ، وعاهدهُمَا أنْ يُؤَمِّنَهُما، فَدَعَا له النبيُّ ﷺ، وبَشَّرَه أنْ سَيَلْبِسُ سِوَارَ كِسْرَى

ملكِ الدُّنا، فَرجَع سُرَاقَةُ يَرُدُّ مَنْ يلقاه، ويقولُ: قد كُفِيْتُمْ مَا هاهنا.

وقدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ فاسْتَقْبَلَه الأنصارُ بأهازيجِ الأَفْرَاحِ وأناشِيدِ السُّرور، وأضاءَتْ بأنْوَارِه أرْجَاؤها، وخلَّدَ التاريخُ نَشِيد اسْتِقبالِها:

طلـــعَ البـــدرُ علَيْنـــا مـــن ثَنِيَّـــاتِ الـــوَدَاعْ
وجَـــبَ الشُّكْـــرُ عَلَينـــا مـــا دَعَـــا للهِ دَاعْ
أيُّـــها المَبْعُـــوثُ فِينـــا جئْـــتَ بِـــالأَمْـــرِ المُطَـــاع

* * *

بِنـاءُ المُجْتَمـع

كانت الهجرةُ فُرْقَاناً بينَ الحقِّ والباطِل، والضعفِ والقُوَّة، مَكَّنَتِ النبيَّ ﷺ أنْ يَنْشُرَ دينَ الله، ويقيم بناءَ المجتمعِ على هدايةِ الله.

أقامَ النبيُّ ﷺ مجْتَمَعَ المسلمين، على رُكْنِ التآخي في الدِّين، آخَى بين الأَنْصارِ والمهاجِرِيْن، وكان إِخاءاً فريداً، آثَرَ فيه الأنصارُ على أنْفُسِهِم المُهَاجرين إخوانَهُمْ، وتَلَقَّوُا المَكَارِهَ عنهم، ودافَعُوا عنهم بأموالِهِمْ وأنفُسِهِم، كما وصفهم الله عز وجل: فقال في المهاجرين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، وفي

الأَنْصار: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾. فاصْدُق يا أخي مع الله لتكون مع الصادقين. وَأنْفِقْ في الإسلامِ وأهلِهِ، لتكونَ معَ المُفْلحين.

عاقَدَ النبي ﷺ اليهود وعاهدَهم، على المُوَادّةِ للمُسْلِمينَ وحُسْنِ جِوَارِهِمْ، وظهرتْ منه عليه الصلاة والسلام في كُتُبِ المُعَاهَداتِ، بادِرَةٌ أولى في التاريخِ هي تحديدُ معنى الأمَّةِ، على أساسِ الدينِ ونظامِ المِلَّة.

وكَمَلَ بنيانُ الفَرْدِ والمجتمعِ والدولة، وفْقَ الأحكامِ الشرعية، كَمَلَتِ العبادات ونزلَتْ أحكامُ الاقتصادِ والقضايا المدَنِيّة، ونُظِّمَتِ الأسرةُ والأحوالُ الشخصِيَّة، واسْتَتَبَّ الأمْنُ بما نَزَل مِن عقوباتِ الجُناة، ونُظِّمَتْ علاقاتُ المجتمعِ المسلمِ مع سائِرِ المجتمعاتِ، فيما يُسَمَّى اليومَ (العلاقات الدَّوْلِيَة).

فَحُقَّ لهذه الأمةِ الفَخْرُ بالإسلام ديناً، والفَرَحُ بكماله نِظاماً، كما أعلنه ربنا: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾.

* * *

غزواتــه ﷺ

ولما اطمأنَّتْ بالنَّبيِّ ﷺ الدار، واسْتَقَرَّ بِه القرار، تَوَجَّهَ معَ

إِقامَةِ المجتمعِ المسْلِمِ إلى أَعدائِهِ الكفّار، فعَقَدَ الأَلْوِيَةَ وقادَ بنفْسِهِ الغَزَوَاتَ، وأرْسَلَ السَّرايا وشَنَّ على المعتدينَ الغارَات، فَغَزَا خمساً وعشرينَ غَزْوَةً قادَها بنَفْسِه، وأرسلَ أكْثَر مِن خمسينَ سَرِيَّةً بقِيادَةِ قُوَّادِه، **واشْتَهَرَ مِن معاركه:**

بَدْرٌ وأُحُدٌ والخَنْدَقُ وَقُرَيْظَة، وخَيْبَر ومُؤْتَةُ وفَتْحُ مكة، وحُنَيْنٌ وتَبُوْكُ ذاتُ العُسْرَة.

أنجز ﷺ تلك العمليات الحربية كلها، على كثرةِ عددِها، وتباعُدِ مواقِعها، في فترة وجيزة، تبدأ من السنةِ الثانيةِ إلى التاسِعَةِ من الهِجْرَة، حتى دانَتْ جزيرةُ العربِ ودخلَتْ في الإسلام، ومَهَّدَ هو نفْسُه ﷺ للفتوحات، بما أَعَدَّ ورتَّبَ لها من المُقَدِّمَات، ولولا النبيُّ ﷺ لَما كانَتْ فُتوحات، ولا كان للعربِ شأنٌ يُذْكَر، إلا ما كانوا عليه من التَّخَلُّفِ والفَقْر؛ ليكون درساً للمسلمين أن يحرصوا على فريضة الجهاد، ليتخلصوا من الضعف والقهر.

الصلح الفتح: الحُدَيْبِيَة ودعوة العظماء

وفي السنة السادسة للهجرة تمَّ صُلحُ الحُدَيْبِيَة، وهادنَ النبيُّ ﷺ المشركينَ، على تركِ الحربِ عشْرَ سِنينَ، وظنَّه المسلمونَ تنازُلاً لعدُوِّهِم، وكانَ في الحقيقةِ نصرَاً لهم. بل قال

الله تعالى فيه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

هدأت النفوس في السِّلْمِ من حَمِيَّةِ القتالِ والصِّدام، وأصبحَ لَدى الناسِ اسْتِعْدادٌ أكبرُ لِسماعِ دعوةِ الإسلام، وَتَمَتَّعَ المسلمونَ بِحُريَّةِ التنقُّلِ وتبليغِ الدعوةِ والقرآن، فكَثُرَ الإقبالُ على الإسلام، وأسلمَ من كُبَراءِ قُرَيْشٍ جماعةٌ، منهم خالدُ بنُ الوليدِ وعمرُو بنُ العاصِ وعثمانُ بن طَلْحَةَ سادنُ الكعبةِ المشَرَّفَةِ.

وأرسَلَ النبيُّ ﷺ رُسُلَه وكُتُبَه إلى المُلوك والعُظَماءِ، مثلِ كِسْرَى الفُرْس، وهِرَقْلِ الرُّوم، والنَّجاشِيِّ بالحَبَشة، والمُقَوْقِسِ بمصرَ، والحارِثِ بنِ أبي شِمْرٍ الغَسَّانِيّ بالشام، والمنذرِ بن سَاوَى بالحِيْرَةِ، بين جَزِيرَةِ العربِ والعراق، وغيرِهم من مُلوكِ الأرضِ والعظماءِ يدعوهم إلى الإسلام.

ثم كان فتحُ مكَّةَ المكَرَّمة، في السنة الثامنة، ودخلَ الناسُ في دينِ اللهِ أفْواجاً، وأَقْبَلَتْ على النبيِّ ﷺ في السنة التاسعةِ الوفودُ، تُبايِعُه على الإسلام وتعطيهِ العُهُود، فَسُمِّيَ ذلك العامُ عام الوُفود.

* * *

اسْتِقْرَارُ الإسْلاَمِ

وفي السنةِ العاشِرةِ شمِلَ الإسلامُ جزيرةَ العربِ، واسْتَتَبَّ له الأَمْرُ، وتمكَّنَ في الأرضِ، وأرسلَ النبيُّ ﷺ العمّالَ والوُلاَةَ،

يُدِيرونَ مناطِقَ الجزيرةِ ويُعَلّمونَ الإسلام.

وحجَّ النبيّ ﷺ بالناسِ حجَّةَ الوَداع، وخطبَ في عَرَفَةَ خُطْبَتَه الشهيرَةَ التي أشارَ فيها لِلْوَدَاع، وذَكَّرَ بأصولِ الإسلامِ في أمورِ الدنيا والدينِ، وحَمّلَ مسؤوليةَ التبلِيْغِ عنه أُمَّةَ المسلمين، فكرَّرَ آخِرَ كلِّ فِقْرَةٍ منها قولَه الجامِعَ: «أَلَا هلْ بَلَّغْتُ، اللهمَّ فاشْهَـدْ». وفي هذا اليومِ الأعْظَمِ نزَلَ عليه ﷺ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾. فالحمدُ للهِ على إكمالِ الدِّينِ وإتْمامِ النعمةِ. رضينا بما رضي الله لنا.

* * *

وفاتــه ﷺ

وفي أواخِرِ صَفَر من السنةِ الحاديةَ عَشْرَةَ مَرِضَ النبيُّ ﷺ في المدينةِ، وتُوُفِّيَ فيها يومَ الثلاثاءِ الثانيَ عَشَرَ من شهرِ ربيعٍ الأول، فأظلم في المدينة كل شيء.

وقد خلّفَ ﷺ لأمته وأحبابِه معنى وجودِه وسِرَّ بِعثتِهِ: «كتابَ اللهِ وسُنَّةَ نبيِّه». فاجْتَهِدْ في العلمِ بِهِما، واستحضارِهما في كلِّ أمْرٍ، حتى تكُونَ كأنَّك مستحْضِرٌ له ﷺ.

* * *

أسرتــه ﷺ

كانت زَوْجُهُ ﷺ الأولى خديجة رضي الله عنها، ولم يتزوجْ

عليها، وَرُزِقَ منها الولد: القاسمَ وعبدَ الله، وزينبَ ورُقَيَّة وأُمَّ كُلْثُومٍ وفاطمةَ، وتُوُفِّيت خديجةُ رضي الله عنها قبلَ الهجرة بثلاثِ سنين، فتزوّجَ بعدها نساء عدة، اجتمع عنده منهنّ إحدى عشرة، وتُوُفِّيَ وعندَهُ تِسْعُ نِسْوَةٍ، وكانت نساؤه ثَـيِّـبَاتٍ كلهن، إلا السيدة عائشة رضي الله عنها وعنهن، فلا تمتنع أن تتزوج امرأة صالحة لكونها ثيباً، ولك القدوة بأفضل الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام. وهذا التعدد خصوصية له ﷺ، لِحِكَمٍ جليلة، منها نشرُ العِلم في نساء الأمة.

ولم يولدْ له منُهنَّ إلا إبراهيمُ من ماريةَ القِبْطِيّة، وماتَ أولادُه كلُّهم في حياتِه، إلا ابنتَه فاطمةَ رضي الله عنها، وقد تزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عمه، فَوَلَدَتْ له الحَسَن والحُسَيْن، وانْحَصرَ فيهما النسبُ الشريفُ إلى النبيِّ ﷺ ورضي الله عنهما.

* * *

الترتيب الإداري

وقد أعد ﷺ الترتيبَ اللازِمَ لإدارَةِ أمورِ المُسْلِمين، وكان له ﷺ كُتَّابٌ يكتُبونَ له، لأنه أميٌّ لم يتعلم الكتابَـةَ، واتَّخذ لنفسه الحرّاسَ، ثم صرفَهم لما نزل قولُه تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ

ٱلنَّاسِ﴾. وقالَ: قد عَصَمَنِي اللهُ لا حاجَةِ بي إلى حارسٍ.

وكان له ﷺ مُؤَذِّنونَ وشعراءُ وخطباءُ وقوادٌ وولاة، وكان له ﷺ خَدمٌ وسَيّافونَ ورسُلٌ وأُمَناءُ سِرٍّ وجُباة، وله ﷺ إبل وخيلٌ وبغالٌ وشياهٌ ورعاة، وله سلاحٌ كثيرٌ من سيوف ودروع وَقِسِيٍّ ورِماح: ولا يَرِثُهُ ﷺ أحد، ما تركهُ صدقةٌ. كما قال هو ﷺ.

وقد أعدّ ﷺ جميعَ **التنظيماتِ الداخليةِ** الشاملة، التي يَتَطَّلبها تشييدُ دولةٍ منظمة، عِوضاً عن نظامِ القبيلة والبداوةِ، وقامَ بنشرِ العلمِ، وإرسالِ المعلمينَ، وتعيينِ القضاة، وعيّن العمال، والولاةَ، والجُباةَ، يجبونَ الزكاة وغيرها، ويؤدون الأموالَ إلى مستحِقِّيها، ونظّمَ مرَافقَ التنظيم الإداري التي يصعب حصرها[1]، وجعل دولةَ الإسلامِ تتسعُ للعالَم وتنهضُ بالحضارة وأمور الحياة.

* * *

(١) انظر بيان ذلك كله مفصلاً في كتاب التراتيب الإدارية، للعلامة المحدث السيد عبد الحيّ الكَتّانِي، وهو كتاب فريد في بابه ضخم مستوعب وموثق. مطبوع في مجلدين كبيرين.

شمائلـه الخِلْقِيّــة ﷺ

كان النبيُّ ﷺ على غايةِ الجمالِ والكمالِ، في ذاتِه وأخلاقِه وأفعالِه، وفي كلِّ أُمورِه ﷺ.

كان ﷺ أَحْسَنَ الناسِ وَجْهاً، وأحسَنَهُم خُلُقاً، ليسَ بالطويلِ البائنِ الزائدِ الطول، ولا بالقصير، كان رَبْعةً من القَومِ، جَعْداً رجلاً ضخمَ الرأسِ واليدينِ والقَدَمَيْنِ، له شَعَرٌ يبلُغُ شحمةَ أُذُنَيْهِ. في وجهه تدويرٌ. أبيضُ مُشْرَبٌ بِحُمْرَة، كأنَّ الشمسَ تجري في وجْهِهِ لنورانيته ﷺ.

إذا مشى ﷺ تَقَلَّعَ كأنّما ينحطُّ من صَبَبٍ، وإذا التفتَ التفتَ معاً، بينَ كتفيهِ خاتَمُ النبوَّةِ، وهو ﷺ خاتَمُ النبيِّين.

إذا تكلّمَ ﷺ تكلّمَ بأشْدَاقِه، كلامُه فصْل، لا نزْرَ ولا هَزْر. أحسنُ الناسِ صوتاً، في كلامِهِ ترتيلٌ وتَرْسيلٌ، يقولُ ناعِتُهُ: لم أرَ قبلَه ولا بعدَه مِثْلَه ﷺ.

* * *

شمائِلُـهُ الخُـلُقِيّــةُ ﷺ

كان النبيُّ ﷺ أوْسَعَ الناسِ صدراً، وألْيَنَهُمْ عَرِيْكَةً، وأكرمَهُمْ عِشْرَةً، وأعظمهم جُوداً، مَنْ رآهُ بديهةً هابَه، ومَن خالَطَهُ معرفةً أحَبّه، قد أَعْلَمَ اللهُ الخَلْقَ بنبوتِه، مِن عظَمَةِ

أخلاقِه، قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

كان ﷺ **أَصْدَقَ الناسِ لهجَةً**، فلم يَسمعْ أحدٌ منه قَطُّ كذباً، لا في أمورِ الدينِ ولا في أمورِ الدنيا، لا بعدَ النبوةِ ولا قبْلَها، حتى عُرِفَ منذُ نَشْأتِه بالصادِقِ الأمين ﷺ.

وكان ﷺ **أشجعَ الناسِ**، فلم يفرَّ أمام العدو، ولم يتزحزَحْ وإنْ عَظُمَ الخَطْبُ وقلَّ العدد، كما في يوم بدرٍ وحُنَيْنٍ، وكان يتقدمُ الصفوفَ، ويخترِقُ جيشَ العدوِّ بنفسهِ، فما يطيقُ أشجعُ الناسِ صَنيْعَه، بل كان الأبطالُ يتّقونَ به العدو: قال سيدُنا عليٌّ رضي الله عنه: «كنا إذا اشْتَدَّ البأْسُ واحْمَرَّتِ الحَدَقُ اتَّقَيْنَا بِرَسولِ الله ﷺ فما يكونُ أحدٌ أقربَ إلى العدوِّ منه».

وكان ﷺ **كثير المشاورة لأصحابه**، مع تأييد الوحي له من ربه، فاقتد أيها المؤمن به.

وكان ﷺ **عظيمَ الرحمةِ والشفقة**، وكان ﷺ يؤانِسُ نساءَه ويعاوِنُهنَّ في الشؤونِ المنزليّة، وكان يُكْرِمُهُنَّ ويُعنَى بتربيةِ المرأةِ على الأخلاقِ القرآنية.

وكان ﷺ **يلاطِفُ الصغارَ** وإذا لقيهم بدأهم بالتحيَّةِ، ويكرمُ البنتَ إذا رُزِقَ بها ويعاملُها بالأرْيَحِيَّة، وَيَحُثُّ على تعليمِ الأطفالِ دينَهم ودنياهم والمساواة بينهم في العَطِيَّةِ.

وكان ﷺ كذلك في **غاية الشفقة على أمته**، بل كذلك على أعدائه، وهم يكذبونَه ويُؤذونَه ويحاربونَه، حتى بلغَ من عظيم رحمتِه وإشفاقِه، أنْ نَزَل في القرآن آياتٌ كثيرةٌ تُخَفِّفُ عنه وتُواسيه، قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾. وقال: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾.

وكان ﷺ في أعظمِ الدرجات من **الجودِ والسَّخاء**، ما سُئِلَ شيئاً قطُّ فقال: لا. جاءه رجلٌ فأعطاه ﷺ غنماً بين جَبَلَيْن، فرجعَ إلى قومه فقال: أَسْلِمُوا يا قومِ فإنَّ محمداً يعطِيْ عطاءً لا يَخْشَى الفاقَةَ.

وقد حفظه اللهُ تعالى من القَبائِحِ، منذُ نشأتِهِ الأُولى، فلم يقع فيما تفعل الجاهلية، من الخمرِ والقمارِ والنساءِ. ولا عظَّم صنماً من أصنامِها، بل كانَ مُباعِداً للأصنامِ مبغضَاً لها، على حينِ كانَ قومُه يعبدُونَها، ويُحَلُّونَها بالذهبِ والفضةِ والجَوْهَر.

وكان ﷺ مُتَرَفِّعاً على الدنيا، ما كانَ للدنيا مَوْقِعٌ في قلبِه، وإنَّ قُرَيْشاً عرضوا عليه المالَ والزوجةَ والرئاسةَ، حتى يتركَ هذه الدعوةَ، فلم يلتَفِتْ إليهم، ولم يُبَالِ بوعدِهم ولا بوَعِيدِهم.

وكان ﷺ لا يَبِيْتُ عنده من المالِ شيءٌ، ويقولُ: «ما أُحِبُّ

أنَّ لي مثلَ أُحُدٍ ذهباً فأَبِيْتُ وعندي منه شيء».

وكان ﷺ **في غايةِ التواضُعِ** مع الخلقِ كلِّهم، فكانت الجاريةُ والعبدُ والمِسْكِينُ يأخذونَ بِيَدِه لحاجاتِهم، فيذهبُ معهم، يساعِدُهم، وكان يأكلُ على الأرضِ، ويجلسُ على الأرضِ، ويقولُ: «إنما أنا عبدٌ، آكلُ كما يأكُلُ العبدُ، وأجْلِسُ كما يجلسُ العبد».

وكان لتواضعه **يجالسُ المساكين**، ويسأل الله حُبَّ المساكين. ويَتَوَسَّدُ يده الشريفةَ، وَيُقِصُّ من نفسِه الكريمة، ويلْطَعُ أصابِعه[1]، ولا يأكُلُ مُتكِئاً، وكانَ يَخِيْطُ ثوبَه، ويَخْصِفُ نعلَه، ويكونُ في بيتِه في عملِ أهلِه.

وكان ﷺ **في غايةِ الفَصاحةِ والبلاغةِ**، فهو أفْصَحُ العربِ، قال ﷺ: «أُعْطِيْتُ جوامِعَ الكَلِمِ وخَواتيمَهُ، واخْتُصِرَ لي اخْتِصاراً». حتى كان طابَعُ الحكمة هو طابع كلامِه، مع أنه ﷺ ما كان يتعانى تَحبيرَ الكلامِ ولا تحسِينَه، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾.

وكان ﷺ **في غايةِ الحِلْمِ والعَفْوِ**، لا يغضَبُ لِنَفْسِه، ولا ينْتَقِمُ لها، إلا أنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ فيغْضَبُ لله. وكان الحِلْمُ

---

(١) أي يأكل ما عليها.

فيه ﷺ سَجِيَّةً، كم آذاهُ جُفاةُ الأَعرابِ وأَغْلَظُوا فَعفَا عنهم، بل أكرمَهُمْ وأجزلَ لهم العَطِيَّةِ.

ولو لم يكنْ مِن كرمِ عفوِهِ ورجاحَةِ حِلْمِه، إلا ما كان يومَ فتحِ مكةَ لكفاكَ بِه، فقدْ دخلَها عَنْوَةً، وصاروا بَينَ يَديهِ أَذِلَّةً، وقد آذَوْهُ أشَدَّ الأذَى، وسَفهوا عليه كلَّ السَّفَهِ، وقتَلوا أعمامَه وأصحابَه، فَدَخلها ﷺ متواضِعاً خاشِعاً، تكادُ لِحْيَتُه تضربُ مُقَدّمَ رَحْلِه، خَشْيَةً لله وتواضُعاً، وخطبَ فيهم فقال: «ما تظنونَ أني فاعلٌ بكم؟» قالوا: خيراً، أخٌ كريم، وابنُ أخٍ كريم. فقال: «أقول كما قال أخي يوسُف: لا تثْرِيْبَ عليكُمُ اليومَ، يغفِرُ اللهُ لكم وهوَ أرْحَمُ الراحمين. اذهبوا فأنتم الطُّلقَاء». وأطلقهُمْ وأحْسَنَ إليهم وأكْرَمهم.

وإنه عليه الصلاة والسلام بقيَ على طريقته المَرْضِيّةِ هذه، **من أولِ عُمُرِه إلى آخِره**، لا يتخلفُ عن شيءٍ من هذه المعالي، والمتصنِّعُ المتكَلِّفُ لا يمكنُه ذلك قط، وإلى هذا الاستدلال يشير قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

وإنه عليه الصلاة والسلام كان في **كلِّ واحدةٍ** من الأخلاقِ الكريمةِ والخِصالِ الفاضلَةِ في **الغايةِ القُصْوَى من الكمالِ**، بينما العظماءُ يفوقون في خَصْلَةٍ أو أكثرَ، ثم ينزلون، ويكونونَ

عادِيِّين فيما سوى ذلك، بل دونَ العادِيين. أما النبيُّ ﷺ فكان مَجْمَعَ أمِّ الكمالاتِ، ولم يحصُلْ ذلكَ لأحدٍ مِنَ الخلقِ، فكانَ اجتماعُها في ذاتِه مِنْ أعظَمِ المعجزاتِ، وأوضحِ الدلالاتِ أنه رسول الله ﷺ.

* * *

مُعْجِزاتــه ﷺ

وأمَا معجِزاته الدالة على حقية نبوته فكثيرة جداً، صُنِّفَتْ فيها المصنفاتَ الكثيرة[1]، نذكر نبذةً يسيرةً جداً مما تواتر من معجزاته ﷺ وثبت ثبوت القطع، فمن ذلك:

١ ـ **القرآن الكريم** الذي تحدى العرب أن يأتوا بمثله، ثم تنازل معهم إلى عشر سور، ثم إلى سورة واحدةٍ منه. قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. فأعْجَزَ بذلك عامّة الفُصَحاء، وأَعْيَى جميع البُلَغاء.

٢ ـ **انشقاق القمر** له بمكة حتى صار فرقتين؛ قال الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ

---

(١) مثل كتاب دلائل النبوة لأبي نعيم الأصفهاني في مجلدين، ودلائل النبوة للبيهقي في سبع مجلدات.

مُّسْتَمِرٌّ﴾. وتواترت الأحاديث أنّ ذلك كان بمكة للنبيِّ ﷺ.

٣ ـ **تَكْثِيرُ الطعامِ القليلِ**، حتى أَطْعَمَ منه الخَلْقَ الكثيرَ. وهو مُتَوَاتِرٌ في وَقائِعَ كثيرةٍ، منها إطعامُ جيشِ الخندقِ كلِّهم من سَخْلَةٍ[1]، والطعامُ بِحاله.

٤ ـ **نبعُ الماءِ** من بينِ أصابِعه الشريفةِ ﷺ، فَشَرِبَ العسكرُ كلُّهم وهم عِطاشٌ، وتوضَّؤوا كلُّهم، كلُّ ذلك من قَدَحٍ صغير. ووقائعُ ذلك كثيرةٌ متواترةٌ.

٥ ـ **الإسراءُ والمِعْراج**، والإسْراءُ مذكورٌ في القرآنِ صراحةً، والمِعْراجُ إشارةً، في مطلع سورة النجم، وتواتر ذلك في الحديث.

٦ ـ **أنه ﷺ أخبرَ بالغُيوبِ** فكان كما قال، ووقائع ذلك كثيرة جداً، منها: تَقْتُلُ عمّاراً الفئةُ الباغية، وأنَّ عثمان «تُصِيْبُه بَلْوَى وله الجنة»، وأنّ الحسنَ بن علي رضي الله عنهما «سيّدٌ يُصْلِحُ الله به بين فِئَتَيْنِ عظيمتَيْنِ من المسلمين». و«إذا هلك كِسْرَى فلا كِسْرى بعدَه. وإذا هلَكَ قيصَرُ فلا قيصَرَ بعدَه. والذي نفسي بيده لَتُنْفَقَنّ كنوزُهما في سبيلِ اللهِ». وغير ذلك كثير جداً.

٧ ـ **حَنِيْنُ الجِذْعِ شَوْقاً إليه** ﷺ، وكان يخطُبُ على جِذْعِ

---

(١) السَّخلَة: أنثى ولد الماعز.

شجرةٍ، فصُنِعَ له المِنْبَرُ، فَرَقِيَهُ ليخطب عليه فَحَنَّ الجِذْعُ إليه، وسمع الناسُ صوتَ الجِذْعِ بذلك، فنزل إليه النبي ﷺ وضمّه فَسَكَنَ.

٨ ـ **تَسْبِيحُ الحَصى بيديه ﷺ**، وسمع الحاضرون ذلك.

٩ ـ **أُطْعِمَ ﷺ السُّمَّ** في ذراعِ شاةٍ، ومعه بعض أصحابِه، فمات مَنْ أَكَله لِحِيْنِهِ، وعاش هو ﷺ أربعَ سِنين، وأخبره ذِراع الشَّاةِ المَسْمومةِ أنه مَسْموم.

١٠ ـ **زُوِيَتْ له ﷺ الأرضُ** ـ أي طُوِيَتْ وجُمِعَتْ ـ فأُرِيَ مَشارِقَها ومَغارِبَها، قال: «وسيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي ما زُوِيَ لي منها». فبلغَ مُلْكُهُم، من أولِ المَشْرِقِ في السِّنْدِ إلى آخرِ المغربِ في الأندلس، ولم يَتَّسِعُوا في الشِّمال والجَنوب مثل اتِّساعِهم شرقاً وغرباً.

١١ ـ أَخلاقُه الحميدة وشمائِلُه المجيدة ﷺ، التي سبق أنْ أشرنا إليها، فإنها من أعظم المعجزات.

* * *

خَصائِصُه ﷺ

اختصَّ الله نبيه محمداً ﷺ بخصائصَ كثيرةٍ جداً، بعضُها له

بشخصه، وبعضُها له ولأمته، وبعضها في الدنيا، وبعضها في الآخرة[1].

فمن خصائصه ﷺ:

١ ـ **القُرآن الكريمُ**. فهو معجزتُه العُظمَى، وهو خُصُوصِيَّةٌ له دونَ غيرِه ﷺ.

٢ ـ **نصْرُ اللهِ إيّاه ﷺ بإلقاءِ الرُّعبِ**، في قلوبِ أعدائِه مسيرةَ شهْرٍ. قال ﷺ: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مسيرةَ شهرٍ». وهذا لأمته ما كانت على اتِّباعِه ﷺ.

٣ ـ **أنه ﷺ مبعوثٌ إلى الخلقِ كلِّهم**، عربِهم وعجمِهم، أوّلِهم وآخِرِهم، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾، وقال ﷺ: «وكانَ النبيُّ يُبْعَثُ إلى قومِه خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى الناسِ عامَّة». أي في كل زمان ومكان.

٤ ـ **الشفاعَةُ العُظْمَى** بالخلائِقِ يومَ القِيامَة. قال ﷺ: «وَأُعْطِيْتُ الشَّفَاعَة». وهي المراد من قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾.

---

(١) جمِعَتْ خصائصُه ﷺ في مؤلفات كثيرة، أوسعها الخصائص الكبرى للسيوطي، في مجلدين. اختصره في جُزْءٍ لطيف، سماه أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب.

٥ ـ أنه ﷺ خاتمُ النَّبيين لا نبي بعده، ثبت بذلك نص القرآن: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾. وتواتر عنه الحديث: «أنا خاتَمُ النَّبِيِّينَ لا نَبِيَّ بَعْدِي».

٦ ـ أنه صلى الله عليه وسلم له الأسبقية والأفضلية على الخلق كلهم، وقد أعطاه الله تعالى الوسيلة، وهي «منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو» وهي «أعلى درجة في الجنة» كما ثبت في الأحاديث الشريفة.

٧ ـ أَثَرُهُ ﷺ العَظِيم البَنَّاء، الذي أحدثَه في العالم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ فأصبحتِ الأمة الإسلاميةُ به رائدةَ الحضارَةِ، وانتقل العالم، وانْتَقَلَتْ أوربّةُ بفضلِ سيدنا محمد ﷺ من التخلُّفِ والهَمَجِيَّةِ إلى عَلياءِ الحضارةِ والمدنية. ولولا سيدنا محمد ﷺ لظل العالم ولظلّتْ أوربةُ في ظلماتِ الجهل وتخلفِ المَدَنِيَّة وليس ذلك الأثر العظيم لأحد غيره ﷺ.

إن فضل النبي ﷺ في شخصه وفضله على العالم كله ليوجب له ﷺ الوجوب اللازم المحتّم، أن يكون في المكانة الأعظم، من الثناء والتكريم بين العالمين.

٨ ـ أنه عليه أفضلُ الصلاةِ والسلام قد شَمِلَ جميعَ أَوْجُهِ الحياةِ بعظَمَتِهِ، فإذا كانَ الأفرادُ القلائلُ في التاريخِ فاقوا

وظهَرُوا في جانبٍ ما، فإنك تجدُهُمْ في بقية الجوانب عاديِّين أو دون العاديين. أما عظَمَةُ النبيِّ ﷺ فإنها كامِلَةٌ شاملةٌ، لا قُصُورَ فيها عن غاية الكمال، في أيِّ جانبٍ من جوانبِ الحياة؛ أو خصلةٍ فاضِلَةٍ من خصال الفضائِل. وهكذا تجد عناوين كثيرة جداً في عظمته ﷺ، مثل: محمَد ﷺ الداعي، محمد ﷺ العسكري، محمد ﷺ السياسي، الإداريُّ، البليغُ، الصَّدِيْقُ، الرئيسُ، الزوْجُ، الأَبُ، السَّيِّدُ، الأمينُ، الصادقُ، الوَفِيُّ، المأْمُون، الجَوَادُ، الرَّؤوف الرحيمُ، العابدُ، المتواضِع، المَتَنَزِّهُ عن الدنيا، الرجل...

٩ ـ ومن خصائص عظمةِ النبي ﷺ **أنه في كل حياتِه**: منذ نشأته، ثم في شبابه، ثم في كهولته، ثم في دعوته وجهاده ﷺ، كان هو **موضعَ الأُسْوَةِ الحَسَنَةِ، والقُدْوَةِ المُثْلَى**، لكل إنسانٍ يريدُ أنْ ينشأ بقوةٍ وكمالٍ في هذه الحياة، لِمَا دَأَبَ عليه من الصبرِ والمُصَابَرَةِ، كما سجَّله القرآن الكريم: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ** ﴾.

كانت حياته ﷺ مثالاً لكل نوعٍ من أنواعِ المجاهَدَة، اقتَدَتْ به أُمَّتُهُ فيها مِن بَعْدِه، حتى نَبَغَ فيها نُبَغاءُ مِن كل جنْسٍ وطَبَقَةٍ، ومِنْ كلِّ المُسْتَوَيات والأَلْوان، لم ينْبُغْ مِثْلُهُمْ في التاريخ من بيئاتهم، إلا في ظِلِّ الإسلام.

وقد عدّ العلماءُ المُحَقِّقُوْنَ والعُقلاءُ الحُكَماء المتأمِّلونَ فَضائِلَ أخلاقِهِ ﷺ دلائلَ على نُبَوَّتِه[1]، وسبقَ لذلك سابِقُو الصحابة أبو بكر الصديق وأمثاله، من أهلِ الإسلام، وهِرَقْل وسواه من غير أهل الإسلام، وقد راحِ هِرَقْلُ يَسألُ أبا سُفيانَ ورِفاقَهُ من تجارِ مكةَ، ـ وهم مشركونَ آنئذ ـ عن النبي ﷺ: «فهلْ كنتُمْ تَتَّهِمُونَه بالكَذِبِ قبلَ أنْ يقولَ ما قال؟ فقال أبو سفيان: لا. فعلّق هِرَقْلُ قائلاً: «فقدْ أعرِفُ أنّه لم يكُنْ لِيَذَرَ الكذِبَ على الناسِ ويكذِبَ على الله». وكان فيما سأله: «ماذا يأمُرُكُمْ؟» فأجابَ أبو سفيانَ: «يقولُ: اعْبُدُوا اللهَ ولا تُشْرِكُوا بهِ شيئاً، واتْرُكُوا ما يقولُ آباؤُكُمْ، ويأمُرُنا بالصلاةِ والصِّدْقِ والعَفافِ والصِّلَةِ». قال هِرَقْلُ: «فإنْ كانَ ما تقولُ حقّاً فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَي هاتَيْن»[2].

فتأمل أخي المؤمن أهميةَ تلك القِيَم، فقد دلَّتْ هرقلَ على صدقِ رسالةِ النبيِّ ﷺ، واجعَلْها أساسَ حياتِكَ، فإنَّها مِن لوازِمِ الدينِ الحقِّ.

---

(١) الأربعين في أصول الدين للإمام الرازي: ٣٠٩ ـ ٣١٠ وإيثار الحق على الخلق لمحمد بن مرتضى اليماني، وأعلام النبوة للماوردي: ١٤٩، وقد ذكروا مجامع مفيدةً جداً في ذلك، فانظرها.

(٢) من حديث طويل متفق عليه.

١٠ ـ ومما امتازتْ بهِ عَظَمةُ النبيِّ ﷺ ذلك **الأُسْلُوبُ التَّرْبَوِيُّ العَظيمُ**، الذي امتازَ به على الناسِ ـ وهو الأمي في قومٍ أُمِّيِّين ـ، فقد أوجدَ أُمَّةً فاقتِ الأممَ في مجموعِها، كما فاقتْ في أفرادِها؛ لقد حوّلَ العربَ من أمةِ بَداوةٍ وبداءٍ، إلى أمةٍ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، وصنَعَ من العربِ الجُفاةِ الأُمِّيِّينَ قادَةً عِظامَاً عالميين، وأساتذةً مُعَلِّمينَ ومرَبِّين، هم مَضْرِبُ المَثَلِ عَبْرَ التاريخ في العقلِ والحضارَةِ، والإيمانِ والخُلُق والعلمِ والثقافةِ، فقاموا مِن بعدِه بإدارةِ الدولةِ الكبرىٰ الإسلامية أحسنَ قيامٍ نهضَتْ بهِ الإنسانيّة، كما بَشّره الله في الآيات القرآنية، وأخبر هو ﷺ في الأحاديث النبوية .

إنَّ سيدَنا محمداً ﷺ عظيمٌ، لأنه قدوةُ المقتدينَ في الفضائل التي يَتَمَنَّاها المخلِصُون، عظيمٌ لأنه على خُلُقٍ عظيم. وحسبُنَا مِن عظمتِه ﷺ أنه عظيمٌ في كلِّ ميزانٍ، هو عظيمٌ في ميزانِ الدين، عظيمٌ في ميزانِ الشعورِ، عظيمٌ في ميزان الأخلاقِ والفضائل، عظيمٌ عند من يختلفونَ في التصوراتِ الفِكْرِيَّة، ولا يسعهم أنْ يختلفوا في الطبائعِ الآدميَّة، والبدهياتِ المنطِقِيّة.

إن النبيّ الكريمَ سيدَنا محمدٌ ﷺ: هو «الرجلُ الوحيدُ في التاريخِ الذي نَجَحَ بشكلٍ أسمى وأبْرَزَ في كِلا المُسْتَوَيَيْنِ الديني

والدنيوي». «وإنّ هذا الاتَّحادَ الفريدَ الذي لا نَظِيْرَ له لتأثيرِه الدينيِّ والدنيويِّ معاً، ليوجب أنْ يكون سيدُنا محمدٌ ﷺ أعظمَ شخصيةٍ، ذاتِ تأثيرٍ خَيّرٍ فاضلٍ، وبنّاءٍ شاملٍ، في تاريخِ البشرية ﷺ».

* * *

كمالُ شَرِيْعَتِــه ﷺ

لقد شهدَ ربُّ العالمين أحكمُ الحاكِمين، بكمالِ هذه الشَّرِيعَةِ وهذا الدينِ، وأنزل ذلك على رسولِه الأمين، لِيُعْلِنَهُ في أعظمِ اجتماعٍ للمسلمين، هو جمْعُ عرفةَ في حَجَّةِ الوَداع: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾.

وحَسْبُ كلِّ عاقِلٍ شهادةُ اللهِ شهادةً، وحسبُ المسلمِ ذلك لِيَعْتَصِمَ بهذه الشريعة. **وخصوصاً هذه الركائز الآتية من قواعد الإسلام، وأصول مقاصدِه في الحِكمِ والأحكام.**

إنَّ **الأصلَ الأولَ** والمقصِدَ الأساسِيَّ للإسلام هو الإيمان والاعتقاد أنه **لا إله إلا الله**. توحيداً خالِصاً من كل شائِبَةِ شِرْكٍ أو تشبيهٍ لله بخلقه، وهو سبحانه واحد في أفعاله، هو الفعّال لما يريد، لا ربَّ ولا مدبر سِواه. وأنَّ محمداً ﷺ رسولُ اللهِ، بعثَهُ اللهُ للعالمين أَجمعينَ، إلى يومِ الدين.

وهناك أركانٌ للإيمانِ والإسلامِ، وَشُعَبٌ: فرائضُ وسُنَنٌ، بيّنها لنا كتابُ الله، وشرحها رسولُ الله ﷺ.

أما أركان الإيمان: فهي كما جمعها حديث جبريل: «أنْ تُؤْمِنَ باللهِ ومَلائكَتِهِ وكُتُبِهِ ورسُلِهِ واليومِ الآخِرِ وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّه».

وأما أركان الإسلام: فهي كما في الحديث: «أنْ تَشْهَدَ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ، وتقيمَ الصلاة، وتؤتِيَ الزكاةَ، وتصومَ رمضان، وتَحُجَّ البيتَ إنِ اسْتَطَعْتَ إليه سبيلاً».

هذه فرائض فرضها الله في العقيدة وفرائض في العمل بين العبد وربه تبارك وتعالى.

وهناك فرائض فرضها في المال، تتلخص مهماتها في فريضة الزكاة، وإباحةِ التجارةِ وطُرُقِ الكسبِ المشروعةِ، وتحريمِ الرِّبا والسَّرِقَةِ وأكلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ، وهو كلُّ وسيلةٍ غيرِ مشروعة.

وهناك فرائضُ للمُجْتَمَعِ: كانتِ المجتمعاتُ فوضى، ترتكبُ الفواحشَ، وتقطعُ الأرحامَ ويأكلُ القويُّ الضعيف، فأصلحَ النبي ﷺ المجتمعَ، وأعادَ بِناءَهُ على قَواعِدَ إسلاميةٍ جديدة، ركنُها

وأساسُها أمران، هما من مُسْتَلْزَماتِ الإيمان وعلاماتِه، وهما المحبة والمسؤولية.

أما المحبة: فهي محبّةُ الإيمان العميقَةِ، التي تربطُ المسلمَ بالمسلمِ برابِطَةِ أُخُوَّةِ الإسلام، التي ليس لها انفصام، وهي فرضٌ إيماني لا خِيارَ للمسلمِ فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

هذه الأُخُوّةُ ليسَتْ بالمجامَلَةِ، وليست تبادُلَ عواطفَ في الصورةِ. بل يجبُ عليك أنْ تَغْرِسَها في قلبِكَ غَرْساً، وتجعلَها في تعامُلِك مِقْياسَاً. وتبذُلَ فيها المالَ والوقْتَ، وتبذلَ الجُهْدَ لتخلِيْصِ المسلمِ من الضيق والكَرْبِ.

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تَحَاسَدُوا، ولا تَنَاجَشُوا ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ على بَيْعِ بَعْضٍ، وكونُوا عِبادَ اللهِ إِخْوَاناً، المسْلِمُ أخو المسلم، لَا يَظْلِمُه ولا يخذُلُه، ولا يَكْذِبُهُ ولا يَحْقِرُه»(١).

وقال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أحدُكُم حتى يحبَّ لأَخِيهِ ما يحبُّ لِنَفْسِه».

---

(١) تناجشوا: النجش أن يتظاهر بالرغبة في شراء شيء ليخدع غيره فيشتريه. لا تدابروا: لا يهجر المسلم أخاه ويقاطعه. لا يخذله: لا يترك نصرته على العدو الكافر، أو مساعدته على من يظلمه.

وتبْـدَأُ هذه المحبَّـةُ من البيتِ بينَ الزَّوْجَيْنِ، ولو بالتَّـكَلُّفِ والتَّحَمُّلِ، وبيْنَ الأولادِ والوالِدَيْنِ، وبينَ الإِخْوَةِ ثم الأَرْحَامِ والجِيرانِ، وهكذا يجب أنْ تَعُمَّ جميعَ أهلِ الإسلام.

* * *

وأمّا المَسْؤُوليَّةُ: وهي الالْتِزَامُ بالتكالِيْفِ والوَاجباتِ، دينيّة أو دنيويّةً، وأداؤُها كاملَةً غيرَ منقوصَةٍ. فهي أساسُ قِوام الأُمَمِ، وخصـوصيةُ الإنسـانِ في العـالَم، وهـي الأمانَـةُ التـي ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾.

وقد بيّن النبيُّ ﷺ شمُولَها، وتأكيدَ فَرْضِيَّتِها بغايةِ القوةِ في الحديثِ المتفقِ عليه أنه قال: «كُلُّكُمْ راعٍ وكلُّكُم مَسْؤُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، فالإمامُ رَاعٍ وهوَ مَسْؤولٌ عنْ رَعِيَّتِهِ، والرجلُ راعٍ في أهْلِه وهو مَسْؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والمرأةُ راعِيَةٌ في بيتِ زوجِها وهي مَسْؤولةٌ عن رَعِيَّتِها، والخادِمُ راعٍ في مالِ سيِّدِه وهو مَسْؤُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والرجُلُ راعٍ في مالِ أبيه وهو مسؤولٌ عن رعيَّتِهِ. فكُلُّكُمْ رَاعٍ وكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عن رَعِيَّتِهِ».

فإذا ضُيِّعَتِ المسؤولِيَّةُ في أُمَّةٍ ضاعتِ الأمَّةُ، وإذا ضاعت في كلِّ الأممِ فهو خرابُ العالَمِ، وهذا معنى الحديث الصحيح المشهور: «إذا ضُيِّعَتِ الأمانَةُ فانْتَظِر الساعَةَ».

وأهمّ هـذهِ المسؤوليـاتِ التـي فرضهـا الله تعـالى: صـدقُ

الحـديثِ، وأداءُ الأمانـةِ، وصِلَـةُ الرحِـمِ أي القرابـةِ، وحسنُ الجِـوارِ، ورعايـة الأيتـام، وإنصاف العمال والكادحين، وإكرامُ المستضعفين.

وتُـحْفَـظُ الخيراتُ كلهـا والطاعاتُ **باجتنـابِ المحرَّمات**، وبالاستغفـارِ والتوبـةِ سريعـاً لمن وَقَـعَ في شيءٍ منهـا، لا سيما الكَبائِر، **ومنها هذه السبعُ الخَطِيْرةُ المُهْـلِكات**:

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوْبِقَاتِ: الشِّرْكُ باللهِ، وَالسِّحْرُ، وقتلُ النفسِ التي حرّمَ اللهُ إلا بِالْحَقّ، وأكْلُ الرِّبا، وأكْلُ مالِ اليَتِيمِ، والتَّوَلِّيْ يومَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المُحْصَناتِ المؤمِناتِ الغافِلات»[1].

وأحْكِمْ أيّها المؤمنُ مَواقِفَك كلَّها، باستحضار رقابةِ اللهِ وأنه مُطَّلِعٌ عليك فيها، كما جاء في الحديث الصحيح المشهور: أنه ﷺ قال: في الإحْسان: «أنْ تَعبُـدَ الله كأنك تراه، فإن لمْ تكنْ تراه فإنه يراك».

* * *

(١) الموبقات: المهلكات. التولي يوم الزحف: الفرار من مواجهة الكفار في الحرب. قذف المحصنات: اتهام العفيفات بالزنا. الغافلات: البريئات من الزنا.

عظَمَــةُ حقِّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم

إن إيتاءَ العَظَمةِ حقّها، واجبٌ في كلِّ آنٍ وبينَ كل قَبِيل، وإنَّ النبيّ ﷺ أعظمُ مخلوقٍ خلَقَه اللهُ تعالى، وهوَ أفضلُ الخلقِ على الإطلاق، هو سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وهو هادِي البشريةِ ومنقذُها، ومخرجُ الناس من الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، وخصائصُهُ وفضائلُهُ تَعِزُّ على الإحصاءِ، وتَضِيْقُ على الاسْتِقْصاءِ، وكلُّ جانب منها يوجِبُ له ﷺ حقوقاً على العاقِل، فكيفَ بالمؤمِنِ الفاضِلِ، فحقوقُهُ ﷺ كثيرةٌ، قد صُنِّفَتْ فيها المُصَنَّفَاتُ(١)، وقد ذَكَر الله تعالى أصولَها الأَسَاسِيَّـة، نوضحها لك في ضوء هذه الآيةِ القرآنيّة: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

١ ـ **الإيمانُ بـه** ﷺ أنه رسولُ اللهِ إلى الناسِ كافَّـةً، على مدى الزّمانِ والمكانِ، وأنه خاتَمُ النَّبِيِّينَ، والمُرْسَلِين، وأنَّ كل ما جاءَ به حقٌّ وصِدْقٌ ويقينٌ، والاعتقادُ بِعِصْمَتِهِ ﷺ، وكمال أُمُورِه وما جاءَ به.

٢ ـ **تعظيمُ النبيِّ** ﷺ وتوقِيْرُه. وهذا معنى قوله تعالى:

---

(١) أشهرها كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى ﷺ، للقاضي عِياض بن موسى السَّبْتِيّ.

﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ وقد جَعَلَتِ الآيةُ ذلك شَرْطَاً للفلاح، ومِقْياساً للنجاحِ، وما أكثر ما يُقَصِّرُ المسلمونَ في هذا، ومنهم متدينونَ، ورُبَّما اغْتَرّ بعضُهم بقولِه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وهو جهلٌ واضِحٌ بمقصودِ هذه الجملةِ، واقتطاعٌ لها عن بقِيَّتِها ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، وإهمالٌ للعملِ بِمُوْجَبهَا.

وتَعْظِيمُ النبي ﷺ يكُونُ في القلبِ وفي اللسانِ وفي العمل:

أما في القلب: فاعتقادُ كمالِهِ ﷺ وفضلِهِ على جميعِ الخلقِ، واعتقادُ كمالِ دينِهِ، وأنه ﷺ معصُومٌ عنِ المعاصي والمخالفاتِ، وأن الكمالَ كُلَّ الكمالِ في أفعالِه وأقوالِهِ وأخلاقه وسيرته. واعتقادُ بطلانِ كل ما يخالفُ ذلك. وامتلاءُ القلْبِ بمحبَّتِهِ، حتى تفوق محبةَ أيِّ مخلوقٍ سواه ولَوْ أنفُسَنا، قال ﷺ: «لا يؤمنُ أحدُكُمْ حتى أكُونَ أحَبَّ إليه من وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ والناسِ أَجْمَعين».

وأما تعظِيْمُهُ ﷺ في اللِّسانِ، فأنْ نَقْرِنَ ذِكْرَهُ بما يفيدُ التَّوْقِيرَ والاحترامَ، وأَنْ يُذْكَرَ بالصلاةِ والسلامِ عليه ﷺ، ونُرَدِّدَ على الناسِ ذكْرَ ما يُوْجِبُ تَعْظِيْمَهُ ﷺ، من فضائِله وخَصَائِصه وشمائِلِهِ وأمورِه ﷺ، فكلُّها كَمالٌ، تزدادُ النفوسُ بمعرِفَتِها محبّةً له ﷺ، وإعْظَاماً لِمَقَامِه ﷺ.

وأما تَعْظِيْمُهُ في العَمَلِ: فأَنْ نَسْلُكَ مسْلَكَ التكْرِيْمِ لِسِيرَتِهِ

والاحتفاء بسنته، وأحَقُّ التعظيم له اتّباعُ سنَّته ﷺ، والتَّأَسِّي بِطَرِيْقَتِهِ ﷺ، حتى في أمورٍ من العاداتِ، لأنّ عاداتِ أهلِ الكمالِ، أكملُ عاداتِ الرِّجال.

٣ ـ **نَصْرُ النبيِّ ﷺ**: وذلكَ بِمُوَالاةِ مَنْ وَالاَهُ، ومُعادَاةِ مَنْ عَادَاهُ، وإحياءِ طريقَتِهِ وسنتِهِ، وبيانِ حَقِّيَّتِها، وَإِنْفَاقِ المال لأَجلِها، ودَفْعِ الأباطيلِ عَنْها، وقِتالِ أعدائِه الماردِيْن، وجِهادِ الكافِرِيْنَ العادِين، بالنفسِ والمالِ واللِّسان.

٤ ـ **اتِّباعُ القُرْآنِ**: وهو النُّورُ الذي أُنْزِلَ معه، والسنَّةُ لأن ذلكَ واجبٌ؛ بأنه رسولُ اللهِ وأن القرآن كلامُ اللهِ، وقد أَمَرَا باتِّبَاعِ السنَّةِ، فلا فلاَحَ لمن أَنْكَرَها، بلْ لا فلاحَ إلا بِوَفَاءِ حُقوقِه ﷺ كلِّها، وهذه أُصُولُها قد عَرَفْتَها، فَاسْتَمْسِكْ بها.

* * *

الخاتمة

إِنَّ العلمَ بالنبيِّ ﷺ وسيرتِه، يثبِّتُ الإيمانَ برسالَتِهِ ويقَوِّيْه، وإنَّ العلمَ بفضائِلِه وخصائِصِه ينمي الإيمانَ ويُرَقِّيه، وإن تفصِيْلَ ذلك لا تحمِلُهُ المجلَّدات، ولا تَمَلُّ منه النفوسُ سماعاً ولا قِراءات، وإنَّ الكتابَةَ عنه ﷺ وعن شمائِلِهِ لَتَرْتَفِعُ لكَوْنِها فيه، ويرتَفِعُ بها شأنُ كاتِبِها، كما صرح الفضلاءُ من المُؤَلِّفين

فيها، وكما سَبَقَ قولُ حسانَ بنِ ثابتٍ رضي الله عنه:

مـا إِنْ مَـدَحْـتُ مُحَمّـداً بِمَقَـالَتِـي
لكـنْ مَـدَحْـتُ مَقَـالَتِـي بِمُحَمَّـدِ

وإنما قدَّمْنا هذِهِ الوِجازَةَ البالِغَةَ الإيجازَ تَذْكِرَةً تشوِّقُ لطلَبِ المَزِيد، وتفيد في الأيّامِ والمُنَاسَبَاتِ المستَفِيد.

وفي الحقِّ أنّه ليسَ بعدَ ثناءِ اللهِ تعالى ثَناء، وحَسْبُ المَتَأمِّلِ قولُه تعالى في كتابِه، يصفُ رسالَةَ رسُولِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾. وقولُه تعالى يَصِفُ خُلُقَ وشَخْصِيَّةَ رسولِه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾.

وارْضَ اللهم عن القائِل:

وأَفْضَلُ الخَلْقِ على الإطْلاقِ نبِيُّنـا المَبْعُـوثُ لِـلآفَـاقِ

والحمدُ لله على ما عَلَّم ويَسَّرَ وألْهَم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

اللهم زدنا علماً بك، ومعرفةً بنبيك، اللهُمّ علِّمْنا ما ينفَعُنا وانْفَعْنا بما علَّمْتَنا، وَزِدْنا اللهم عِلماً. اللهمّ ربَّنا آتِنا في الدُّنْيا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنةً وقِنا عَذَابَ النَّارِ. رَبَّنا آتِنا مِن لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّءْ لنا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً.

اللهمّ اهْدِني لأَحْسَنِ الأَخْلاقِ لا يَهْدِي لأَحْسَنِها إلا أنتَ. واصْرِفْ عنّي سيِّء الأخلاقِ لا يصرِفُ عني سَيِّئَها إلا أنت. اللهمَّ إنّي أسْأَلُكَ حُبَّكَ وحُبَّ مَنْ يُحِبُّك، وحبَّ عَمَلٍ صالحٍ يقرِّبُني إلى حبِّكَ. اللهم اجعلْ حُبَّكَ وحُبَّ نَبِيِّكَ سَيِّدنا محمدٍ ﷺ أحبَّ إليَّ مِن نفسِي وأهْلي ومن كلِّ شيءٍ يا رَبَّ العالَمين.

اللهم ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ اجْعَلْنِي مُخْلِصاً لك وأَهْلِيْ في كلِّ ساعةٍ من ليل أو نهار. اللهمّ ربّنا هَبْ لنا من أَزْوَاجِنا وذُرِّياتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ واجْعَلْنا لِلمُتَّقِينَ إِماماً. اللهم احفظنا واحفظْ أمةَ سيدنا محمد ﷺ.

اللهم انصرنا وانصر أُمَّةَ سيدِنا محمد ﷺ اللهم اخذل أعداء أمةِ سيدنا محمد ﷺ. فَرِّجْ عن أمةِ سيدِنا محمدٍ ﷺ.

اللهمَّ إنك تَعْلَمُ سِرِّي وعلانيتي فاقْبَلْ مَعْذِرَتِي، وتعلَمُ حاجتي فأعطِني سُؤْلي. اللهم إني أسألُك إيماناً يُباشِرُ قلبي، ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لا يصيبني إلا ما كتبتَ لي. وبارك لي في أهلي وفيما رزقتني.

اللهم يسِّر لِيَ اليُسرى وجَنِّبني العُسْرى، واغفِرْ لي وارْحَمني في الآخِرَةِ والأُولَى.

ربِّ اغْفِرْ لي ولِوَالِديّ ربِّ ارحمْهُما كما ربَّيانِي صغيراً. اللهم واغفِرْ لمشايخي ولأَولادي وَلِوَلَدِيْ الشهيد محمد

مجاهد[1]، وأعل مقامه، واغفر لإخواني وأحْبَابِي وطُلاَّبِي ولكلِّ مَنْ له حقٌّ عَلَيّ وللمؤمنين والمُؤمِنات.

اللهم صلِّ وسلِّمْ أكمَلَ صلاةٍ وأَتَّم سلامٍ على سيدِنا محمدٍ وعلى آلِهِ وأصْحابِهِ وتابِعيهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدين، وعلينا مَعَهم بِرَحْمَتِك يا أرْحَمَ الراحِمين. وسلامٌ على المُرْسَلِين والحمد لله رب العالمين.

* * *

---

(١) استشهد رحمه الله في حادث من حوادث المرور المُرَوّعة عصر الخميس ١/صفر/١٤١٦ الموافق ١٩٩٥/٦/٢٩ وقد نجح في الامتحان الأخير لمرحلة الماجستير في طب القلب والأمراض الداخلية، وهو في سن الثلاثين. كان رحمه الله مثال الشاب الخلوق المتدين التقي، هادئاً، ذكياً نبيهاً، كريماً، باراً، مشتغلاً بعلم الشرع مع تفوقه في الطب، شديد التعلق بجَدِّه فضيلة شيخنا أمتع الله به، نفّاذ الشخصية، أثر في رفاقه ومعارفه بكمال أحواله. اللهم أَعْلِ مقامه مع النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وأعظم لنا فيه الأجرَ والخلف من فيض فضلك العظيم. آمين.

من كتب المؤلف

- علوم الحديث، للإمام ابن الصلاح ـ الطبعة الخامسة ـ.
- المغني في الضعفاء، للإمام الذهبي ـ طبعة جديدة بمقابلة جديدة ـ.
- نزهة النظر شرح نخبة الفكر، للحافظ ابن حجر ـ تحقيق جديد ـ ـ الطبعة الثالثة ـ.
- شرح علل الترمذي للحافظ ابن رجب الحنبلي ـ الطبعة الرابعة ـ.
- منهج النقد في علوم الحديث ـ الطبعة الثامنة ـ.
- الحج والعمرة في الفقه الإسلامي ـ الطبعة السادسة ـ.
- في تفسير القرآن وأسلوبه المعجز أدبياً وعلمياً ـ الطبعة الحادية عشر ـ.
- علوم القرآن الكريم طبعة منقحة فيها زيادات مهمة ـ الطبعة السابعة ـ
- المعاملات المصرفية والربوية وعلاجها في الإسلام ـ الطبعة الثامنة ـ.
- أبغض الحلال. ـ الطبعة الثامنة ـ.
- تفسير سورة الفاتحة في ضوء السنة وعلوم اللغة والبلاغة.
- ماذا عن المرأة؟ ـ الطبعة السابعة ـ.
- إرشاد طلاب الحقائق، للإمام النووي. ـ الطبعة الرابعة ـ.
- إعلام الأنام شرح بلوغ المرام من أحاديث الأحكام.

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
وجوب معرفة النبي ﷺ، والبشارة به ﷺ	٣
ولادته ﷺ وما حفّها من إرهاصات ونسبه الشريف ﷺ	٥
زواجه ﷺ من خديجة ﷺ ثم تجديد الكعبة	٩
نزول الوحي والدعوة سِرّاً	١٠
الجهر بالدعوة وتحمّل الشدائد	١١
عام الأحزان. وفاة أبي طالب وخديجة والإسراء والمعراج	١٢
بَيْعَةُ العَقَبَة والهجرة ثم بناء المجتمع في المدينة	١٤
غزواته ﷺ وخططه الحربية المحكمة	١٧
الصلح الفتح: الحديبية ودعوة والعظماء للإسلام	١٨
استقرار الإسلام ـ وفاته ﷺ	١٩
أسرته ﷺ: زوجاته وأولاده	٢٠
ترتيبه الإداري وشموله جوانب الدولة والأمة	٢٢
شمائله الخِلْقِيّة والخُلُقِيّة ودلالتها على نبوته ﷺ	٢٣
معجزاته ﷺ (تعداد عشرة متواترة منها) ثم خصائصُهُ ﷺ	٢٨
كَمالُ شريعته ﷺ وأصول قواعد الإسلام	٣٦
عظمة حقه ﷺ وأهم وجوهه	٤١
دعاء واستغفار	٤٤